بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

«أصول النحو العربي» يقصد بها الأسس التى بنى عليها هذا النحو فى مسائله وتطبيقاته ، ووجهت عقول النحاة فى آرائهم وخلافهم وجدلهم ، وكانت لمؤلفاتهم كالشرايين التى تمد الجسم بالدم والحيوية .

وأول مؤلف مشهور عن هذا الموضوع - فيما أعلم - هو «الأصول فى النحو» لابن السراج (ت ٣١٦هـ) وقد ضم كتاب «الخصائص» لابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) أبحاثا قيمة من تلك الأصول ، ثم ألف ابن الأنبارى (ت ٥٧٧ هـ) رسالتيه المختصرتين «الإغراب فى جدل الإعراب و «لمع الأدلة فى أصول النحو» فقدم فيهما آراء مفيدة سديدة اعتمد السيوطى (ت ٩١١ هـ) على الكثير منها فيما بعد فى مصنفه «الاقتراح فى علم أصول النحو» .

لقد قدم هؤلاء النحاة وغيرهم من علمائنا الأقدمين - رحمهم الله - جهودا طيبة مستخلصة من استقراء المسائل والجزئيات والآراء التى كانت لعلماء النحو الذين سبقوهم وعاصروهم ، وكانت تلك الأصول التى درسوها نتيجة ذلك الاستقراء بقدر ما أدى إليه اجتهادهم وفهمهم .

فليس معنى وجود أول مؤلف مشهور عن الموضوع فى القرن الثالث الهجرى - أصول ابن السراج - أن تلك الأفكار لم تكن موجودة من قبل ، بل كانت موجودة فى صورتها العملية فى دراسات النحاة وآرائهم ، لكن لم توضع للبحث بطريقة مباشرة إلا بعد فترة كافية من بداية النحو ونموه ، وهذا طبيعى !! الجزئيات والممارسة أولا ، ثم استخلاص الأفكار العامة من تلك الجزئيات .

* * *

وهذا المؤلف عن (أصول النحو العربي) درس تلك الأصول -كما جاء فى عنوانه- من نواح ثلاث هى (نظر النحاة - رأى ابن مضاء - ضوء علم اللغة الحديث) وقد التزم منهج عرضه تقديم هذه النواحى الثلاث مع كل أصل درسه هذا الكتاب .

و «نظر النحاة» لتلك الأصول اعتمد حقا على ما قالوه ، لكنه لم يدرس فى هذا الكتاب كما قالوه !! بل درس كما فهمه المؤلف من أقوالهم والظروف العلمية لعصرهم ، وما تأثروا به من تلك الظروف فى دراستهم للنحو بخاصة واللغة بعامة .

أما «رأى ابن مضاء» فهو رأى فرد ، إنه واحد من نحاة الأندلس فى القرن السادس الهجرى ، كان مذهبه الفقهى الظاهرى وموقف هذا المذهب من النصوص الدينية دافعين له إلى أن يسلك النهج نفسه فى نظرته لنصوص اللغة والطريقة التى تدرس بها هذه النصوص نحويا ، فراعه أن تلك الدراسة قد اختلط فيها الأصيل الذى يفيد النطق بالدخيل الذى يعوق تلك الفائدة ، فامتلك حرية عقله وشجاعة قلبه ، وقدم رأيه فى كتاب صغير الحجم خطير الشأن أسماه (الرد على النحاة)

إن ابن مضاء أمة وحده بين النحاة !! لم يسبقه فى نهجه المتكامل عن أصول النحو أحد قبله ، ولم يقدُره النحاة التقليديون بعده حق قدره !! فنُسى اسمه ، وغاب عن الدرس النحوى رأيه ، حتى كان عصرنا الحاضر ، فعاد الرجل إليه من وراء القرون مهيبا جليلا ، ليأخذ مكانه ومكانته فى الدرس اللغوى الحديث .

والمقصود من «ضوء علم اللغة الحديث» فى هذا الكتاب أن نرى فى هذا الضوء القيمة الحقيقية لواحد من نحاة العرب هو «ابن مضاء» وقد ظهرت قيمته فى هذا الضوء ثمينة رائعة !! كما بدت قامته بين هالاته شامخة باهرة !! إذ سبق بآرائه التى قدمها فى كتابه الصغير الخطير ما يقوله اللغويون المحدثون فيما تناوله من أصول النحو .

فالهدف من «علم اللغة الحديث» فى هذا الكتاب توظيفه لبيان ما فى تراثنا من قيم علمية نافعة ، بإزالة ما علق بها من غبار، وإزاحة ما غلفها من ضباب ، حتى يعود لها ما هى جديرة به من الوضوح والنقاء .

إن هذه الدراسة إسهام متواضع فى تلك الجهود الدائبة الصابرة لتعريف القارىء العربى بمنهج البحث اللغوى الحديث ، وإذا كانت خُطَى هذا المنهج تسير ببطء فى دراسة اللغة العربية ، فإنه فى رحلته القصيرة معها قد حقق بعض المكاسب إذ أمكن استيعابه فى كل مستوياته وفروعه – كما طبق بنجاح فى مناقشة طريقة البحث اللغوى العربى

والتعرف على ما فيه من عناصر مفيدة أو معوّقة - وأكثر من ذلك فإن بعض الجهود التى التزمت المنهج اللغوى التقليدى قد أفادت من روح المنهج الحديث فى التنقية والتصفية والتجديد [1] .

وهذا الكتاب - فيما أعلم - أول بحث متكامل يتناول طريقة التفكير فى النحو العربى بالدراسة فى هذا المدى المتطور عند النحاة وابن مضاء وعلم اللغة الحديث ، ومنه تتضح الرؤية لذلك التفكير حتى العصر الذى نعيش فيه ، فلا يبقى ذلك التفكير أثرا تاريخيا متجمدا ، بل جهودا علمية قابلة للتطور والمناقشة .

وينبغى التنبه إلى أن هناك فرقا بين البحث فى اللغة واللغة نفسها ، فاللغة المدروسة لايغيرها اختلاف النظر إليها بمنهج دون آخر ، ولعل هذه الحقيقة العلمية تقدم بعض الأمان والاطمئنان لمن سينزعجون لما يقابلونه فى هذا الكتاب من آراء لاتتفق مع موروثاتهم التقليدية ، سبق إليها ابن مضاء ، وأيده فيها علم اللغة الحديث ، فالكتاب دعوة لهم للتأمل المنصف لا الرفض المعاند ، دعوة إلى السير فى الضوء بغير تحطيم المصابيح !!

ومن المعلوم أن الصعوبة فى النحو العربى تعود فى جزء كبير منها إلى الأفكار الذهنية والمنطقية التى تسربت إليه ، وتوغلت فيه ، وقد أطلق عليها ابن مضاء «الفضول والمماحكات والتخييل والظنون» ووصفها بأنها «لاتفيد نطقا» - هذه الأفكار الذهنية أبعدت دراسة النحو عن خدمة اللغة ، وكانت للمتعلمين كدًرا يصرفهم عن استيعابه وتمثله ، ولعل هذه الدراسة تسهم فى التمييز بين ما فى النحو العربى من الصالح والطالح ، وبين ما يفيد علمه وما لايضر جهله ، فيفيد منه الباحثون فى اللغة حتى التقليديون منهم نظرا جديدا يعينهم على تخليص النحو من تلك الأفكار المعوقة ، للإبقاء على «نحو اللغة» لا «نحو الصنعة» .

وبعد : فها هو الكتاب بين يدى القارئ ، وقد بذلت جهدا شاقا مضنيا فى مراجعه وتبويبه وتأليفه ، جهدا لايوصف بل يعاش !! وأنا لا أبتغى منه لنفسى كسبا ولا

---

(١) مثال ذلك كتاب (النحو المصفى) للدكتور / محمد عيد .

شهرة ، ولا أنتظر من أحد غير الله قبولا أو ثوابا ، وحسبى أننى عرفت وفهمت ، ثم جاهدت وجهدت ، حتى كان هذا الكتاب !!

وكل ما أرجوه أن ينتفع به طلاب المعرفة المخلصون ، ولهم أهدى هذا الكتاب وما كلفنى من جهد – أما هؤلاء الذين يرفضون كل جديد أو تجديد ويتكلمون ولا يعملون ، فلا وزن لهم فى ساحة العلم والحقيقة ، فما أهون الكلام الرخيص الهدام !! وما أصعب الجهد العملى الخلاق !!

القاهرة فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ — محمد عيد